

## وظائف علماء الجزائر خلال العهد العثماني (10-13هـ / 16-19م)

Jobs of Algerian scholars and their social role during the ottomanera 10-13AH/16-19AD

عبو إبراهيم<sup>1</sup> ، رزقي عبد الرحمن

جامعة مصطفى اسطمبولي — معسكر-الجزائر ، brahim.abbou@univ-mascara.dz<sup>1</sup>

جامعة مصطفى اسطمبولي — معسكر-الجزائر ، abderahmane.rezgui@univ-

mascara.dz<sup>2</sup>

تاريخ الإرسال: 2024 / 09 / 24 ؛ تاريخ القبول: 2024 / 10 / 16 ؛ تاريخ النشر: 2024 / 12 / 01

### الملخص باللغة العربية:

ظهر علماء الجزائر العثمانية كقوة متميزة نتيجة وصول حكام غرباء عن الثقافة العربية والتشريع الإسلامي احتكر علماء الجزائر مهنة الإفتاء، القضاء، التعليم، وبما أن هذا المجال العلمي كان محدودا كثر عليه التنافس من قبل العلماء. حظيت طبقة العلماء بالجزائر بمكانة اجتماعية وروحية مرموقة، لها تميّزت به من احترام وتقدير في بلدانها وأوطانها، والمكانة والحظوة والتقدير"، لذا سعى الحكام الابتعاد على ما يثير غضب العلماء بسبب مكانتهم عند السكان.

اشتهر كثير من علماء الجزائر بمهنة التدريس وفضلوها على باقي الوظائف الأخرى، فأبوراس الناصري الذي رزق الذكاء الحاد والذاكرة القوية. والى جانب مهنة التعليم والتأليف كرس حياته للتأليف والتدريس لمدة تزيد عن ستة وثلاثين سنة بلا انقطاع.

انتشر بين بعض علماء الجزائر الدسائس والكيد لبعضهم إضافة إلى ظاهرة سرقة الكتب من المساجد وتغيير وبيع الأحباس من القائمين عليها، ومن جهة ثانية انتشرت في الجزائر ظاهرة احتكار الوظائف الرسمية بين العلماء وأبنائهم وأقاربهم والتي أصبحت حكرا على بعض العائلات لأنها مجلبة للجاء والنفوذ الروحي والمالي، إلى جانب التفاخر بالشرف والرياسة والقيادة مما جعلهم يؤلفون الكتب لتأكيد شرفهم وصحة نسبهم الشريف.

عبو إبراهيم<sup>♦</sup>

الكلمات المفتاحية: العلماء؛ الفقهاء؛ الإفتاء؛ التعليم؛ مبعوثين وسفراء؛  
الحسد؛ سرقة الكتب.

**Abstract:**

The scholars of Ottoman Algeria emerged as a special category due to the arrival of foreign rulers to Arab culture and Islamic rules.

Algerian scholars monopolized the profession of fatwa, the judiciary and education, and since . Scientific field was limited, it was strongly contested by scholars. Scholars were much respected by people. There fore rulers avoided to do harm to them. most scholars were famous for their teaching which they preferred to other jobs.

. Abouras Al-Nasiri who was endowed with a sharp intelligence and a strong memory devoted his life to writing and teaching for more than thirty-six years without interruption.

Some scholars hated each others and caused harm to each others too. More over they stole books from mosques and kept official jobs for their children and relations since it was considered as an honor pride and leadership. That's why they wrote books to show their honor and their noble origin.

**Keywords:** scientists. jurists. fatwa. education. envoys and ambassadors. envy. steal books.

**مقدمة:**

ظهر علماء الجزائر العثمانية كفة متميزة كنتيجة طبيعية لوصول حكام غرباء عن الثقافة العربية والتشريع الإسلامي الذين أصبحوا يستأثرون بشؤون الحكم والجيش والإدارة بينما أصبحت المسائل التي لها علاقة بالدين في أيدي العلماء ، نتج عن هذا الوضع السياسي أن فئة العلماء احتكرت لنفسها مجالات معينة في المجتمع كالإفتاء، القضاء، التعليم، والإمامة وبما أن هذا المجال العلمي كان محددًا كثر التنافس عليه الأمر الذي سمح للسلطة السياسية بضرب هذا بذاك ويغلبون فريقًا على الآخر وعائلة على عائلة عند الضرورة رغم قرب القضايا التي يعالجونها والوظائف التي يؤديونها" (سعد الله أبو القاسم ، 2001. ص389).

بناءً على ما سبق، هل يمكن اعتبار السلطة السياسية الجديدة في الجزائر سبباً مباشراً في هذا الوضع العلمي والأخلاقي لعلماء الجزائر؟ أم أن الوضع يرجع لظروف سابقة؟.

أشارت الدراسات حول الموضوع .لكل من ابن المفتي حسين بن رجب( تقييدات في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها) والشيخ الفكون (منشور الهدايا) وابن سحنون الراشدي ( الثغر الجباني في ابتسام الثغر الوهراني) كما أشارا كل من البوعبدلي- سعيدوني في كتاب ( الجزائر في التاريخ العثماني-ج4) إلى الظروف السياسية والثقافية الصعبة والاستثنائية التي عاشتها الجزائر قبل الوجود العثماني في مقدمتها الغزوات الصليبية على السواحل والمدن الجزائرية وشیوع الدروشة وسيطرة ظاهرة التصوف والجمود العقلي والتخلف السياسي، فالطرق الصوفية زادت انتشارا وتقريحا حتى بلغ عددها اثني عشرة طريقة، كما أن الحكم العثماني لم يشجع العلم والعلماء بالعطايا والامتيازات.

#### 1.علاقة العلماء بالسلطة السياسية:

دخلت الجزائر الرابطة العثمانية باسم العقيدة الإسلامية حيث كان الجهاد البحري وصد الخطر الصليبي هو الدافع الأساسي لوجودهم على شواطئ شمال إفريقيا، "وكان وجود الإسباني بالسواحل مصدر تحالف بين الجزائريين والعثمانيين" (1)، وإن عاملا الدين والجهاد جعل الجزائريين يقبلون بفكرة تواجد العثمانيين ليكون لهم الدور الأكبر في تدعيم فكرة التحالف بينهما حيث كانوا في نظر الناس يمثلون حماة الدين وهذا الأمر سمح لهم بكسب تأييد ومساعدة العلماء لفترة طويلة" (سعد الله ابوالقاسم ، 2001،ص392)، ولقد تركت انتصارات العثمانيين انطبعا حسنا لدى الأهالي الذين استنجدوا بالإخوة برباروس، ويذكر العالم عبد الرحمن التلمساني بأن السكان هم من راسل الإخوة برباروس بجيغل برسالة جاء فيها: "أخذتم بجاية وجيغل من النصرى، ونصرتهم الدين فهنيئا لكم أيها المجاهدون ولا بد أن تقدموا إلينا لتخلصونا من هؤلاء الملعين الكفرة لأننا في محنة عظيمة وذل شديد" (سعد الله ابوالقاسم ، 2001،ص392).

لقد كان الجهاد القضية الأولى في اهتمامات العلماء الذين شاركوا فيه من خلال الرباطات مما جعلهم يطلبون من الحكام في كل مناسبة بتحرير المدن والثغور "...ونظموا الأشعار لإلهاب حماس الناس وتذكير الباشاوات بواجباتهم الجهادية لتحرير المدن التي احتلها الأسبان" (سعد الله ، 2001 ، ص195)، ومن جهة أخرى أضحت الحرب ضد الأسبان مرآة عاكسة للتحالف بين العلماء والسلطة السياسية من خلال إدراك الحكام مكانة العلماء لدى السكان المحليين على أنهم حماة البلاد فإذا تقاعسوا عن الجهاد تعرضوا لسخط العلماء والسكان من جهة ثانية" (سعد الله أبوالقاسم ، 2001 ، ص196). ويعتبر العالم احمد بن يوسف الملياني نموذجا للتحالف بين السلطة ممثلة في الإخوة برباروس والعلماء، فالشيخ الملياني هوشاذلي الطريقة، ويتمتع بسطوة كبيرة بين

الأهالي، وعند استقرار الإخوة برباروس بالجزائر أرسل خير الدين إلى الملياني هدايا ثمينة اعترافا بجميله وبمبلغ مالي قدره 4000 دينار، كما حصص له جزءا من الجزية المفروضة على اليهود بثمانية صيعان، عند ذهاب الحجاج إلى الحرمين" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص 197).

لم تكن فئة العلماء ظاهرة وليدة العهد العثماني ولا هي ميزة خاصة بها، وقد تشكلت بالجزائر طبقة مميزة، محترمة تقرب منها رجال السلطة بسبب قوة تأثيرهم على الأهالي وطبيعة العصر الديني الموسوم بالتصوف لذلك أصبح العلم والدين صنوان يكمل بعضهما الآخر، وحسب لغة العصر فالعالم عليه أن يكون أولا فقيها في دينه قبل أمور دنياه" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص 198) وهنا نستخلص أن فئة العلماء هي رجال الدين أو رجال الشريعة ورجال القضاء والتعليم ورؤساء الطرق الصوفية ونقابة الأشراف" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص 481)، وكان رجال الدين هم العلماء بحق فكل محدث أو فقيه أو مفسر يعد في نظر العامة "عالما" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص 480).

وحسب صاحب تاريخ الجزائر الثقافي - فالعلماء خلال العهد العثماني ثلاثة أصناف. العلماء الموظفون، الفقهاء المستقلون لا صلة لهم بالتصوف، العلماء المتصوفة، المتصوفة دعاة العلم والولاية (المرابطون)" (محمد بن ميمون، ص 48)، هذا من الناحية العلمية.

أما من الناحية الوظيفية فهم طبقتين: الطبقة الرسمية التي تشمل القضاء، المفاتي، المدرسون، ثم الطبقة الملحقة بها من رجال الزوايا والمتصوفة وسلالة الأشراف (المهدي البوعبدلي، 1973، ص 133) "المنحدرة من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم وهم على شكل مجموعات تحت رئاسة "نقيب الأشراف".

وحسب حمدان خوجة فقد وجد في كل مدينة نقيب للأشراف وهو بمثابة الحاكم الثاني للمدينة، ويختار من بين الأسر الشريفة وواجهه كلما حدث أمر هام يجتمع في بيته مع شيخ البلد وسائر الأمناء

وحتى في السلم الاجتماعي اعتبرت طبقة العلماء في المدن من طبقة الحضر، حيث احتلت المرتبة الثالثة في المجتمع الجزائري بعد العثمانيين والكراغلة، ورغم عدم توليها للمناصب السياسية لعبت

دور الوسيط بين الحاكم والمحكوم، ولهذا الغرض تم إنشاء "المجلس العلمي" وهو عبارة عن هيئة تشريعية وقضائية هدفها تجاوز التضارب بين المذهبين الملكي والحنفي وتقريب الرؤى بينهما أو على الأقل عدم إفشاء ذلك الاختلاف إلى الإخلال بالإدارة العامة وحصره بين العلماء دون العامة، وينعقد المجلس العلمي كل يوم خميس بالجامع الأعظم ويرأسه المفتي الحنفي إثر تراجع المذهب المالكي ويحضر أشغاله الباشا أو نائبه عند

الضرورة، "والمجلس يفصل في القضايا الفقهية الشائكة خاصة تلك التي يحتاج فيها الباشا الحصول على فتوى العلماء" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص137)، ولقد اتسمت تركيبة المجلس العلمي بالتوازن بين علماء المذهبين كما أن رئاسة المجلس كانت للمفتي الحنفي غير أن هذا لم يمنع قيام المفتي المالكي بدوره في المصادقة على الأحكام وتعيين القضاة المالكيين في الإيالة" (ابن المفتي، ص98)، وبعد مجيء العثمانيين على مستوى هرم الحكم، نشأ نوع من التعايش بين المذهبين والذي أرتكز على تقاسم المهام، "وظهر هذا التعايش في شكل تعاقد بين الحكام الأوائل مع شيوخ البلد وعلمائه منذ أول نزول لهم في المنطقة" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص399).

إن السياسة العثمانية اتجه العلماء والمرابطين خلال بداية الوجود العثماني أتت أكلها وحازت على ثقة العلماء وجعلت الأهالي يسلّمون بشرعية الحكم العثماني بعدما تم القضاء الوجود الصليبي بالمدن الساحلية والأمارات المحلية المختلفة، وهذه السياسة مكنتهم من توطيد حكمهم ونفوذهم بالجزائر.

من جهة أخرى، لجأ العلماء إلى القصائد الشعرية للتحريض على الجهاد ورفع الغبن والظلم عن العلماء لأن الكثير منهم لم يتحصّلوا على المساعدة والعون من طرف الحكام فكانت النتيجة أنهم ضاعوا وتفرّقوا على البلاد الإسلامية طلباً للأمان، أوطعوا في الجاه، أوسعوا وراء المال" (سعد الله أبو القاسم، 2001، ص135).

بناءً على ما سبق، أشارت المصادر المحلية أن معظم علماء الجزائر عارضوا الثورات المحلية ووقفوا ضدها بحكم أنهم موظفي الإدارة العثمانية، فلقد ذكر شريف الزهار: أنها نار فتنة، وذكر مسلم بن عبد القادر وصالح العنتري: أنها أدت إلى البلاء وحصل للناس شدة ومجاعة، كما أبوراس الناصري: بأنها فتنة ونكبات والبليات من الخوف والروع....وخلافا للعالم أبوحامد المشرفي المتوفي سنة 1895م فقد انتصر للثورة الدرقاوية ووقف إلى جانبها من خلال مؤلفه "درء الشقاوة عن السادات درقاوة".

## 2- النظام القضائي والفتوى خلال العهد العثماني.

تعتبر الفتوى أعلى وظيفة يتولاها العالم، ذلك أنها تحتاج العلم الغزير والتعمّق في مسائل الفقه وعلوم القرآن وعلوم الحديث إلى جانب والقياس والنزاهة والصلاح والشجاعة في الرأي، وعرفت الجزائر-كغيرها من البلاد المغرب الإسلامي- أن العلماء كانوا يستشارون في جميع شؤون الحياة وفي الأمور المستجدة على السكان وهذا ما يعرف بالنوازل وذلك كشيوخ وفقهاء "وتتوافد عليهم الأسئلة من كل الجهات فيسجّلها عنده ويجيب عليها أو يمتنع بها توصّل إليه علمه مضيّفا إليها عبارة "الله اعلم" (سعيدوني، 1984، ص37). وهذا ما عرف عن علماء الجزائر قبل مجيء العثمانيين من خلال نوازل الدرر المكنونة في نوازل مازونة" للمازوني، المعيار المعرّب والجامع المغرب عن فتاوي

علماء إفريقيا والأندلس والمغرب للونشريسي والمذهب الذي كان يفتي به هؤلاء العلماء هو مذهب الإمام مالك لأنه مذهب غالبية السكان.

وبعد مجيء العثمانيين إلى الجزائر أحدثوا تغييرا جذريا بنظام الحكم والنظام القضائي وخاصة في مجال الفتوى التي جعلوا منها وظيفة رسمية وعلى مذهبين المالكي والحنفي الذي أصبح في ظل الحكام الجدد المذهب الرسمي الذي أصبح يسمى "شيخ الإسلام" كما كان يسمى زميله في اسطنبول وبذلك أصبح العثمانيون يجلبون معهم علماءهم من اسطنبول نظرا لعدم وجود علماء أحناف في الجزائر قبل وجود العثمانيين وكذلك لعدم الثقة الكاملة سياسيا في علماء الجزائر ("محمد بن عبد الرحمن التلمساني، 1967، ص 32).

والى جانب منصب الإفتاء، أوجد منصب القاضي الحنفي وهي في الأساس وظيفة دينية- سياسية، وأصبح أيضا قاضيان في كل مدينة رئيسية، أحدهما للمذهب الحنفي والثاني للمذهب المالكي، وتحت هاذين القاضيين مجموعة من القضاة المنتشرين في أنحاء الأقاليم، وكان منصب القضاء مجالا خصبًا للتنافس بين العلماء لأنه يجلب النفوذ والجّاه ومال الأوقاف، وهذا التنافس كان سببا في تفشي ظاهرة العلماء الجاهلين لأحكام الدين والشرع وإصدار الأحكام جزافا، وفي هذا الصدد يذكر ابن المفتي: "...تولّى والدي حسين بن رجب شاوش مفتيا وهو في سن الثلاثين ومكث اثني عشر سنة وعزله أهشي مصطفى وولى مكانه الحاج محمد النيار، وهو رجل جاهل مرتش قليل الدين، وكان أول من أهان العلم وأهله عندما قام ينحني على يد أهشي ويقبّلها مرارا فتبعه الرفقاء، وبقيت عادة، وكان من قبل يقف الأمراء للعلماء والفقهاء عن الورد عليهم، ويقبلون أيدي العلماء والصالحين، ويودّعونهم عند انصرافهم." (بن المفتي حسين بن رجب، 88-89). وإذا استفته في مسألة علمية فإنه دائما على رأيك، ويوافقك بأن يقول لك: نعم حسنا أوبارك الله فيك" وتلك هي كلماته، وفي مدة توليه الخطة هيا عددا من الأجوبة الشرعية معتمدا على من عاصره من المؤلفين لم يقرأ لهم أبدا، ولم يكن لعلماء عصره أي اعتبار عنده" (بن المفتي حسين بن رجب، ص 90).

### 3- مستوى علماء الجزائر وأخلاقيهم:

والى جانب الجهل الذي استشرى بين الكثير من العلماء الدسائس والكيد لبعضهم كما جرى للعالم سعيد بن إبراهيم قدورة إمام مسجد سيدي رمضان الذي عزل من منصبه سنة 1090هـ/1679م، والسبب في هذا العزل هورسالة بعث بها حساده للأمير اتهموه فيها بأعمال شائنة وبقلّة الوقار" (بن المفتي حسين بن رجب ص 99)، ومن جهة ثانية طلب من الشيخ قدورة للمحاسبة من طرف أرباب وأهل البلد بعد عزل الشيخ أحمد رزوق بن عمار فامتنع برفق ثم أنه سألهم: هل لا بد من الحاسبة؟ فأطلعهم على الحساب وعلى ما

اشترى من الكتب للجامع، وعرفهم بإصلاحات وبناء أماكن بليت وتلاشت والكل عنده عليه وثائق بخط العدول الثقات." (بن المفتي حسين بن رجب، 97).  
والى جانب الوشاية والقّدح في أخلاق العلماء ومكانتهم، انتشرت ظاهرة سرقة الكتب من المساجد وتغيير وبيع الأحباس من القائمين عليها والعلماء على السواء مثلما حدث لكتّاب الجامع الأعظم الذي كان يحتوي على أثنتا عشر غرارة مملوءة بها وما يزيد عن مائة سفر، توزعت بعد ذلك وردّوا بعضها، أخذ العالم "الطبار الماروني" عددا من هذه الأسفار، وبعد وفاته نقلها ابنه إلى تونس وباعها، كما قام كل من عبد القادر بن الشويحات، وأبناء ابنه سيدي سعيد بسرقة كمّا كبيرا من هذه الأسفار ولم يبق منها اليوم إلا نحو ثلاثمائة سفر" (بن المفتي حسين بن رجب، ص 100)، كذلك قام العالم أبو عبد الله بن نعمون\* (أبو القاسم سعد الله، ص 80) بتغيير كثير من أحباس مدينة قسنطينة وهتك حرمتها والإغراء على بيعها وتمكن عن طريق الاحتيال من بيع خمسة وثلاثين حبسا أونحوها، كما أنه تجاسر حتى على أحباس الموقوفة على خدمة المدينة الشريفة ولم يراع فيها جانب النبي الشريف ولا عظمة ولا وقره في هتك ما نسب إليه" (سعد الله، ص 408).

ومن جهته يشير صاحب الثغر الجماني إلى هذه الظاهرة التي تفشت في عالم الراشدية بقوله: "...وتتبع ( ويعني الباي محمد بن عثمان) أحباس التي استولت عليها أيدي المنتهيين حتى تلاشى عنها أثر الحبس وارتفع عنها اسمه فصارت من جملة الأملاك لا شعور لأحد بتحبسها فوجد منها أراضى كثيرة وصّفها كلها على حائزها" (العربي المشرقي، ص 13).

إضافة إلى ما سبق، هجمت العامة على المفتي النيار" بعد عزله ليسترجع الهدايا التي طلبها من أصحاب الشكوى لما كان مفتيا، وبلغ عنه أنه كان جشعا يستجدي الصدقة، واقتراف الاحتيال على حساب التجار، وفي أي مكان ترتقبه ستري أنه يهيئ لخدعة" (بن المفتي، ص 99).

ومن جهة أخرى، انتشرت في الجزائر ظاهرة ما يشبه احتكار للوظائف الرسمية بين العلماء وأبنائهم وأقاربهم ونخص بالذكر منصب الفتوى والإمامة والخطابة والتدريس التي أصبحت حكرا على بعض العائلات التي لم تقبل التنازل عليها لأنها مجلبة للجاء والنفوذ الروحي والمالي وهذا ما دفع العالم سعيد قدورة إلى إنابة عنه ابنه "محمد" رغم صغر سنه في الخطابة بالجامع الكبير ولم تكن توليه محمد بن سعيد قدورة بالحالة الإستثنائية، فقد

- هو أبو عبد الله المدعو بكنيته ابن نعمون، هو ابن أخت الجد عبد الكريم الفكون، وجده الأب الفقيه الإمام\* أبو البركات ابن نعمون، وهم دار عافية ومن بيتات قسنطينة وشهرتهم في أسلافهم. أنظر: ابن الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية

كلف العالم سيدي سعيد محمد بن قراوش ليقوم مقامه، وبعد أربعة أشهر لاهم أهل البلد على ذلك وجزعو من صنعه" (بن المفتي، ص95)، وبعد وفاة سعيد قدورة أصبح "محمد" هو المفتي الرسمي بعدما قضى بمنصب الفتوى والخطابة مدة أربعين سنة " (الفكون، ص78)، ونفس الأمر حدث في جهات عديدة من الجزائر نذكر منها: أسرة ابن العنابي، التي توارثت منصب الفتوى والقضاء خلال قرن من الزمن بمدينة عنابة، وعائلة آل الفكون، عائلة آل باديس بمدينة قسنطينة.

#### 4- علاقة العلماء مع بعضهم البعض:

إن الظروف السياسية كان لها دورا كبيرا في رسم سلوك وأخلاق وطبائع علماء الجزائر، فالسلطة السياسية شجعت بشكل كبير الخلاف والصراع بين العلماء من جهة وأبنائهم من جهة أخرى، والبحث عن الضعفاء منهم والتخلص من الأقوياء وتجنب إعطاء السلطة والنفوذ لعلماء البلاد والمتصلين بالأهالي" (الفكون، ص92)، كما انتشرت بين العلماء عيوب وطبائع سيئة كثيرة منها التفاخر بالشرف والرياسة والقيادة مما جعلهم يؤلفون الكتب العديدة لتأكيد شرفهم وصحة نسبهم الشريف وهذا الأمر دفع العالم العربي المشرفي إلى القول: "...المشارف علماء أبرار وفقهاء أخیار وبیوت العلم فیها مشهورة بالصالح معمورة....فتحوا للمخزن الأبواب، شرحوا له رموز الوظائف المصنفة على الاعتبار، كانوا لملوك الأتراك عینا ناظرة، وبصيرة باصرة ولذلك كتب توقيهم في الصحف والألواح، واطر تعظیمهم في لدن الرماح، وما أحسن تعظیم الملوك للأشراف إذا عثرت في اللیام الأطراف وجور كل جاير ذاهب للانصراف" (الفكون، ص54)، ومن جهة ثانية ردّ المشرفي ردا قاسيا على العالم أبي راس ووصفه بأبشع النعوت والأوصاف عندما نفى الشرف عن عائلة المشارف قائلا: "...ومن أجل الطعن في نسبهم صرّصت الريح العقيم على ذریته فاجیحت فصار كأنه لم یعقب عقبا من ذکر یذكره أوأنتی تحمد عاقبتها وتشکر" (تقي الدين بوكعب، 2007، ص91).

ويذكر ابن حمادوش، أنه كان يفتخر بشرفه على معاصره ويذكر النوازل التي شارك فيها برأيه وينتهي فيها بتسجيل انتصاره على من خالفه بشيء من الزهو واصفا مخالفه بأدعياء العلم وضعف العارضة وقصر النظر"، ومن جهة أخرى أن محمد بن ميمون قاضي المواريث في وقته من العلماء الذين طال الجلوس إليهم، وفي عهده وقعت خصومة بينه وبين المفتي "بن علي" بسبب غضب هذا الأخير من عدم قيام ابن حمادوش احتراماً له " (الفكون، ص53).

والى جانب التفاخر بالشرف، انتشرت ظاهرة الحسد والبغضاء والنفاق الاجتماعي حبا في المال وجريا وراء المنافع الدنيوية، فهذا العالم أبو محمد عبد اللطيف بن عبد الكريم بن القاضي كانت بينه وبين العالم أبو العباس أحمد الغربي صداقة منذ الصغر

أعقبها التنافس بعد الكبر بسبب ولاية منصب النّيابة أعقبها الهجران الفطيع والترصد بكل المكاره لكل منهما لصاحبه ما لا يليق بكل عاقل، وانحاز كل منهما إلى وال من الولاية يعتضد به على صاحبه، وكان لكل منهما أعوان وأنصار من العام والخاص" (الفكون، ص58).

ففي مدينة قسنطينة مثلاً يذكر الفكون، أن صراع العائلات الكبيرة في هذه المدينة حول الثروة والجاه الديني والسياسي كتولية القضاء أمراً مألوفاً بحكم طبيعة الظروف السياسية وهذا لم يمنع هذه العائلات استعمال نفوذها الروحي والمعنوي على نشر الأمن والاستقرار بالمدينة وأحوازها "واتفقوا على كتابة رسالة جماعية يطلبون فيها من باشا الجزائر تعيين حاكم عليهم يساعدهم وتساعدونه، وطلب منهم أن يقترحوا عليه حاكماً وهو يصادق عليه ففعلوا" (الفكون، ص58).

أصبحت هذه العائلات الكبيرة تتعاطى السياسة رغم عنها- بقصد أو بغير قصد- كلما تعلّق الأمر بالأمن والصالح العام، وذلك من خلال اقتراح على السلطة السياسية المركزية اسم الباي الجديد على المدينة "مثلما حدث سنة 1057هـ/1637م عندما تم تعيين "فرحات" بايا على قسنطينة استجابة لاقتراح آل الفكون" (سعد الله، ص54).

ظهر التحالف السياسي بين أسرة الفكون والسلطة السياسية بكل وضوح أثناء ثورة شيخ العرب ابن الصخري العارمة 1047هـ/1673م التي عمّت كل الشرق الجزائري تقريبا، وكادت أن تطيح بالسلطة السياسية بالشرق الجزائري لولا موقف آل الفكون التي اتخذت موقفاً معادياً ومعارضاً لهذه الثورة خوفاً من توسعها، وحققنا للدماء وصوّنا للأعراض، وتمكنت هذه العائلة من استرجاع الهدوء والسلم إلى المدينة وأحوازها، "وبذلك أصبح العالم الفكون زعيماً روحياً يلتجئ إليه الحاكم والمظلوم على السواء" (سعد الله، شيخ الإسلام، ص56)، وبفضل هذه المكانة الروحية، منح للآل الفكون وظيفة القضاء والإمامة والخطابة بالجامع الكبير وهو بالتالي يرمز إلى الجاه والثروة وجلب طاعة الرعية وهذا على نقيض آل عبد المؤمن الذين رفضوا الانصياع إلى الحكام العثمانيين الجدد منذ حلّ خير الدين برباروس بمدينة "القل" وغلق الشيخ عبد المومن أبواب المدينة على الباي العثماني الجديد ومنع دخولها فظل هو ووجنوده بالمنصورة خارج الأسوار، في هذه الأثناء تدخلت أسرة الفكون المنافسة لأسرة عبد المومن وأتصلت بالحكام الجدد، فوقع تحوّل في مراكز النفوذ من عائلة إلى أخرى، من آل عبد المومن إلى آل الفكون وبذلك أصبحت عائلة الفكون في قمة مجدها الروحي والمادي خاصة في عهد عبد الكريم ودون التحلي عن القيم العائلية والإسلامية" (سعد الله، شيخ الإسلام، ص57).

تعددت العائلات بقسنطينة وتنافست فيما بينها من أجل النفوذ ونذكر منها: أسرة ابن باديس، أسرة الفكون، أسرة عبد المومن، أسرة النعمون التي كانت في خصومة

دائمة مع آل الفكون رغم القرابة الدموية التي تجمعهما حتى كانت بينهم مواريث كما يذكر الفكون، وعادة ما كان هذا الأخير يشعر بالضيق والحرج من ابن النعمون حتى التجأ إلى الله في الدعاء عليه " فقد كان يترصد لي في كل حالاتي، غير أنني أعطيه الأذن الصماء، وأرجو من الله أن يهدم مناره "(الفكون، ص54). ولم يمنع هذا التنافس العائلي المزمّن التقارب والمصاهرة فيما بينها، فمحمد بن النعمون هو ابن أخت العلامة عبد الكريم الفكون (كما يذكر ابن الفكون في كتابه: منشور الهداية)، وأحمد بن باديس كان متزوجاً من أخت والد الفكون، وتزوج شيخ الفكون من ابنة أحمد بن حسن الغري والتي هي من بيوتات قسنطينة العريقة "(سعد الله، ص55).

والى جانب الفتوى والقضاء والتعليم، احتكرت هذه العائلات لنفسها ممارسة التجارة التي كانت بمثابة عصب الحياة والنفوذ السياسي والاجتماعي لهذه النخبة الحضرية بداخل المدينة وخارجها، فأسرة الفكون مثلاً تحصلت على امتيازات عديدة من طرق السلطة السياسية الحاكمة ومنها الأراضي الزراعية الواسعة، فوائد سوق الفواكه والخضر، وفائض أوقاف الجامع الكبير وعشر ما يستورد إلى المدينة من البضائع كالزراي والخشب "(سعد الله، ص416). فضلاً عن إعفاء جميع أملاك العائلة من الضرائب والغرامات، مما جعل أسرة الفكون من الأسر الغنية بمدينة قسنطينة، ومن جهة ثانية عرضة للحسد ومرمى السّهام وغمز العيون.

#### الخاتمة:

من خلال هذه المداخلة يمكننا الإشارة إلى أبرز النتائج المتوصل إليها خلال فترة العثمانية بالجزائر والتي مازالت فترة خصبة للدراسة والبحث الأكاديمي التزيه للوصول إلى معرفة الوضع الثقافي والاجتماعي الذي كان يعيشه علماء الجزائر العثمانية وأثره على الإنتاج العلمي والفكري ومكانة العلماء، وعليه يمكن أن نجزها في النقاط التالية:

-ظهر علماء الجزائر العثمانية كفئة متميزة كنتيجة طبيعية لوصول حكام غرباء عن الثقافة العربية الإسلامي الذين أصبحوا يستأثرون بشؤون الحكم والجيش والإدارة بينما أصبحت المسائل التي لها علاقة بالدين في أيدي العلماء

فئة العلماء احتكرت لنفسها مجالات معينة في المجتمع كالإفتاء، القضاء، التعليم، والإمامة وبما أن هذا المجال العلمي كان محددًا كثر التنافس عليه من قبل فئة العلماء.

-وبعد مجيء العثمانيين إلى الجزائر أحدثوا تغييراً جذرياً بنظام الحكم والنظام القضائي وخاصة في مجال الفتوى التي جعلوا منها وظيفة رسمية وعلى مذهبين المالكي والحنفي الذي أصبح في ظل الحكام الجدد المذهب الرسمي وبذلك أصبح العثمانيون يجلبون معهم علماءهم من اسطمبول نظراً لعدم وجود علماء أحناف في الجزائر.

-انتشرت بين العلماء عيوب وطبائع سيئة كثيرة منها التّفَاخر بالشّرّف والرياسة والقيادة مما جعلهم يؤلفون الكتب العديدة لتأكيد شرفهم وصحة نسبهم الشريف كما استشرى بين الكثير منهم الدسائس والكيد لبعضهم.

-انتشر بين علماء الجزائر صراع العائلات الكبيرة حول الثروة والجاه الديني والسياسي حتى أصبح أمرا مألوفا بحكم طبيعة الظروف السياسية.

- احتكرت هذه العائلات لنفسها ممارسة التجارة ومناصب الإفتاء، القضاء، التعليم، الإمامة، التي كانت بمثابة عصب الحياة والنفوذ السياسي والاجتماعي لهذه النخبة الحضرية بداخل المدينة وخارجها.

- انتشرت بين بعض علماء الجزائر سرقة الكتب من المساجد وتغيير وبيع الأحباس من القائمين عليها والعلماء على السواء مثلما حدث لكتّاب الجامع الأعظم.

### المراجع:

- سعد الله ابو القاسم تاريخ الجزائر الثقافي ج1، 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001
- محمد بن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، ش.و.ن.ت
- المهدي ابو عبدلي، عبد الكريم الفكوناقلسنطيني، 1073/988، والتعريف بكتابه منشور الهدايا في كشف حال من ادعى العلم و الولاية، الأصاله، العدد:13، 1973
- سعيدوني/ البوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني، ج4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984
- محمد بن عبد الرحمن التلمساني، الزهرة النائرة لما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جند الكفرة، مجلة التاريخ وحضارة المغرب، العدد:03، جويلية 1967
- بن المفتي حسين بن رجب ، تقييدات في تاريخ باشاوات الجزائر وعلمائها، جمعها فارس كعوان، الجزائر، العلمة، بيت الحكمة
- ابن الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبوالقاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1
- العربي المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي مجاجة، المملكة المغربية، الرباط، رقم:1534
- تقي الدين بوكعبر ، مخطوط في الرد المشرفي على أبي راس الناصري في قضية نسب أسرة المشرفة، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، 2007/2006